

لم عليك التحدث بأكثر من لغة؟¹

في عالم يتحدث فقط بالانجليزية، سنتكلم عن الأمور البسيطة لا أكثر، ولهذا أود لأطفالي أن يتحدثوا بلغتين

• بين فاتشيني

ترجمة: أنفال العويشز

كان جل ما كنت أخشاه أثناء نشأتي في براري الريف الفرنسي، جنوب وادي اللوار هو أن تخاطبني والدتي الإنجليزية بصوت عالي، لم أخجل كثيرا من زيتها المختلف، فقد كانت تزهو بقبعاتها القشبية و فساتين الشيفون بينما كانت باقي الامهات يتجمعن عند بوابة المدرسة بمربلات المطبخ الممسوحة ببقع الطين أو النبيذ أو الطماطم حسب الموسم، ولكني كنت أجفل عندما تنطق بالإنجليزية خارج المنزل، كنت أمر بحقول العنب في طريق عودتي من المدرسة وأرتعب لسماع صوت والدتي الحاد، والذي يتهيا لي تردد صداه على الصخور حتى بعد أن يتعد رفقائي عن مرمى السمع.

حققت اتزان لغويا في طفولتي بافتعال عدة حواجز فالانجليزية كانت في البيت، والفرنسية للمدرسة وكل شيء خارج البيت - باستثناء المحادثات الفردية مع أخي - والإيطالية كانت متعلقة بوالدي، وحصرتها بزيارتي المنتظمة لإيطاليا وللأغاني النابولية الحماسية والتي تمز نوافذ السيارة.

¹ تجد [هنا](#) رابط الموضوع منشور على موقع حكمة. وهنا [رابط](#) المقال الأصل.

كانت هذه الحواجز ضرورية لحاجتي إلى الظهور كمتحدث أصلي حسب المكان، فعند زيارتي لأخوالي في إنجلترا كنت أخفي فرنسيتي، وفي إيطاليا اقتصر على المواضيع التي اتقنها حتى لا تفلت مني مدّة انجليزية أو فرنسية وتفضحني كهجين مزيف، حافظت على هويتي بقناع ذي ثلاث أوجه.

وعندما أصبحت أبا، كنت اعتقد أني عندما اخاطب ابنائي -المولودون في لندن- بالفرنسية منذ ولادتهم ليصبحوا ثنائيي اللغة طبيعيا، وهذا ما لم يحصل، ولم ينفع ضبط اللغة في مشغل الديو في دي للفرنسية، ولا حتى قراءة نسخي الفرنسية القديمة من مجلات استريكس و تنتن المصورة قبل النوم، دائما ما تمنيت الكلام مع اطفالي بالفرنسية، وتحيلت بأني مع مساعدة من ابناء عمومتي، سأورث الايطالية لأبنائي طبيعيا مع الانجليزية والفرنسية وهكذا سينشئون ثلاثي اللغة كما نشأت.

كان ادخال الفرنسية لعائلي أمرا شديد الصعوبة، فكان وقت الأكل يتأخر أحيانا بسبب نقاش من طرف واحد لإثبات لغتي الفرنسية مقابل انجليزية باقي أفراد العائلة، وأحس ابنائي بأنهم في اختبار، وحتى مع فهمهم المتنامي للفرنسية فإنهم يجدون أي عذر للتأخر عن المشي بجانبني عند الذهاب للمدرسة حتى لا يسمعي أحد، يضعون اصابعهم في اذانهم عن تشغيل سي دي نيكولاس الصغير في السيارة، ويتملصون من الحديث مع الأقارب والأصدقاء بالفرنسية بهز اكتافهم بطريقة انجليزية تصاحبها أحيانا هممة بلكنة باريسية، وقد يخرسون تماما عن التحدث و يتحول الحوار إلى لغة الإشارة.

هل سيختلف الوضع لو التحق اطفالي بمدرسة فرنسية أو عشنا في دولة تتحدث الفرنسية؟ الاجابة ليست قاطعة، يجب أن ينصهر المنزل والبيئة والثقافة والممارسة المستمرة والدراسة والدافعية في معمعة لغوية ولوقت كافي لتثبت اللغة جذورها. فمثلا جدة زوجتي الانجليزية نشأت في الصين وتحدثت باللغة الصينية حتى سن الثالثة عشر عندها عادت لانجلترا وفقدت لغتها الصينية بالكامل.

لم ينشأ اطفالي كثنائي بين عدة لغات متأثر بها يوميا، وعلي تقبل الحقيقة وهي أني لا يمكنني صنع الظروف المواتية للمزيج اللغوي الطبيعي والذي يجعل منك متحدثا فطريا بعدة لغات، وبدأت أقلق من أن اطفالي لن يتقنوا أي لغة سوى الانجليزية.

فقد صقلت شخصيتي منذ أيام المدرسة مروراً بالجامعة وبعدها أثناء سفري وعملي مع إحدى وكالات الأمم المتحدة، والفضل يعود للغات المختلفة التي اتقنها والتي مهدت لي غمار الطريق، وكان لنضالي في للتتكر بصفتي متحدث أصلي أثناء طفولتي ثماره بلا شك، فمعرفة لغات جعلني أتقبل التنوع، ونمي حسي بالعالم، وفتح لي أبواب ثقافات متعددة، وصرت أتفهم تراث الشعوب واتواصل معها بعمق وامتعة أكبر، وأخاف أن ينمو أطفالي بدون هذه النعمة العظيمة، فيسيرون في هذه الحياة على غير هدى، وينقطعون عن آرائهم ويفوتهم ما يمكن لهذا العالم أن يمنحهم.

اقترح أحد أصدقائي وهو ايطالي مقيم في لندن بعد مشاهدته لمعاناتي مع أطفالي أن اتخلى عن محاولاتي لتعليم اطفالي لغة ثانية، فالانجليزية كما اشار تتمتع بمكانة قوية في أنحاء العالم، فما الجدوى من تعليم طفل انجليزي لغة أخرى بينما يتحدث ما يقرب من مليوني شخص الانجليزية؟ وهي كذلك لغة التفاهم بين رجال الأعمال سواء كانوا روس أو يبرويين أو مصريين، وهي اللغة التي يستخدمها أغلب السياح، والتي يدرسها الأطفال في المدارس في كل أنحاء المعمورة.

في العطلات التي نقضيها في الخارج، كانت الانجليزية فعلاً مفتاح اطفالي السحري مع كل الشعوب، في اسبانيا وتركيا واليونان وسويسرا يخاطبنا اصحاب المحلات وموظفي الفنادق بالانجليزية، حتى قبل أن يسألوا من أين نحن.

كما تحتاج مقدارا -ولو ضئيلاً- من الاتقان للغة الانجليزية من أجل الحصول على قبول في الجامعات على مستوى العالم، بالنسبة للعديد من الناس يكون هذا المقدار بالإضافة إلى لغتهم الأم وأحياناً لغة غيرها أو أكثر، فما شأن من تكون لغته الأم الانجليزية ولا يعرف سواها؟ فحقيقة أن عدد المتحدثين بالانجليزية كلغة ثانية يفوق عدد متحدثيها الأصليين يزعزع من مكانة الانجليزية بشدة، واقترح صديقي الإيطالي تعليم ابنائي الانجليزية وحسب قد يجلب مشاكل عديدة لمستقبلهم.

تبلغ احادية اللغة في مناطق كثيرة من الولايات المتحدة واستراليا وبريطانيا نسبة كبيرة، حيث تقل دراسة اللغات الاجنبية في المدارس والجامعات عند المقارنة مع المعدل العالمي، في حين تشكل ثنائية وتعدد اللغات صفة طبيعية للحياة اليومية في معظم الدول، عملت مع الكثير من المعلمين في المغرب الذين كانوا ينتقلون بسهولة من الحديث باللهجة العامية للعربية الفصحى ثم إلى أحد اللغات البربرية ثم للفرنسية، وفي الهند وحدها توجد 461 لغة حسب موقع ايثنولوج (Ethnologue)، وفي بابوا غينيا الجديدة 836 لغة، وفي

الكامبرون 280 لغة، وتتم دراسة الانجليزية مبكرا مع اللغة الأم في الدول الاسكندنافية وهولندا بلا نقاش، وفي لبنان يمزج الناس بين العربية والانجليزية والفرنسية في كلامهم طوال الوقت.

كان اتقان لغة أخرى في حقبة من الزمن في بريطانيا خلال السبعينيات - حين لم يكن محبذا للأطفال فعل ذلك- يعتبر تشويشا للنمو العقلي واللغوي، ولدي العديد من الأصدقاء من أصول مختلطة فقدوا فرصة التحدث بلغتين بسبب هذه العقلية، بينما في الوقت الحالي ينصح بالعكس تماما، حيث تظهر الدراسات التي يجريها قسم اللغويات النظرية والتطبيقية في جامعة كامبريدج تفوق الأطفال ثنائيي اللغة على نظرائهم أحاديي اللغة في المواقف الاجتماعية والمرونة العقلية ووعيهم بالبناء اللغوي، وعزز هذه النتيجة أيضا البحث الذي اجراه علمتا النفس ايلين بياليستوك و ميشيل مارتن ري في جامعة يورك، فقد قاموا بدراسة في عام 2004 على الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة، وظهرت النتائج تفوق ثنائيي اللغة في المهام التي تتطلب مهارات بصرية ولغوية.

وفي دراسة أخرى عام 2007، اجرت بياليستوك مع مجموعة باحثين بحثًا حول تأثير الثنائية اللغوية في 400 مصاب بالزهايمر، لوحظ أن ثنائيي اللغة كانوا أكثر قدرة على التعايش والسيطرة على أعراض المرض من احاديي اللغة.

قام فريق الباحثين باختبار 648 شخصا في دراسة اجريت عام 2013 من قبل مجموعة من الباحثين من جامعتي حيدرآباد و ادنبرة ركزت على المصابين بالزهايمر من المقيمين في مدينة حيدر آباد المتعددة لغويا، منهم 391 شخصا يتحدث بلغتين، دلت النتائج على أن أعراض الخرف تتأخر لدى الأشخاص ثنائيي اللغة بمعدل اربع سنوات ونصف عن احاديي اللغة، وكانت تشير إلى أن النشاط الذهني النابع من التحدث بأكثر من لغة يلعب دورا في حماية القدرات العقلية.

لاحظت بواسطة خبرتي أن تعلم لغة أخرى يبذر حب الاستطلاع ويفتح المجال لحب التعلم بشكل عام، ويتطور حب بالمعرفة ينمو معك مدى الحياة، نشأتي أثناء طفولتي في منطقة ريفية ساعدني على قضاء ساعات طويلة منحيا وسط الأعشاب العالية أتأمل الحشرات وأحلل الكلمات بمختلف اللغات، اصنفها وارتيها واستعرض معانيها ومفرداتها وبدائها، واتذكر بدقة محاولاتي لحل معضلة والدي وهي أنه لا يوجد مقابل في الانجليزية يعبر بشكل كامل عن العبارة الفرنسية (tant pis)، والتي يمكن ترجمتها لـ "مع الأسف" أو "لا بأس" أو "لا عليك" ولكنها لا توفي المعنى حقه، وبالطبع لا تساعد لغة الجسد الانجليزية المرافقة في نقل المعنى كاملا.

هذه التمارين اللغوية كانت فعالة جدا عندما عملت في اليابان لعدة أشهر وحاولت دراسة أساسيات لغة جديدة وغريبة، وسهلت علي أيضا دراستي للغة العربية، والتي لاتزال معرفتي فيها قليلة جدا ولكن ساعدني اعتيادي على التكيف والعمل مع الكلمات الجديدة، لم أدرس أبدا الأفعال المساعدة، أو توافق الصفة مع الاسم، أو صيغة الشرط في مدرستي الريفية في فرنسا، ولكني استوعبت كل هذه المفاهيم بالفطرة، وأرى ذلك يتكرر مع اللغات الأخرى.

يحكي كبار السن في الاسكندرية في أول القرن العشرين عن كيف كانوا ينتقلون في الحديث بين العربية والفرنسية والانجليزية والايطالية واليونانية حسب الشخص الذي يخاطبونه، وكان هذا التنوع اللغوي عامودا لحياة الكثير من الاشخاص ذوي الثقافات المتعددة.

كانت تُنشر سبع صحف باللغة اليديشية وصحف أخرى بالإيطالية والسويدية والألمانية في نيويورك خلال القرن التاسع عشر، وكل المناطق في امريكا كانت نيويورك مدينة غنية بالاختلافات اللغوية حتى انصهرت جميعها تدريجيا للغة قومية واحدة، وفي المجتمعات الحديثة من جاكارتا مروراً بجوهانسبرغ وحتى لوس انجلوس تعتمد الحياة على لغات مختلفة، ويوضح مسح لغوي للتغريدات الصادرة من نيويورك ولندن التنوع اللغوي فيهما، فخلف هذا السطر الواحد تظهر حشود الاعلانات التجارية والمهاجرين والسياح في مزيج متنوع من اللغات.

إحدى زميلاتي وهي سورية تجيد التحدث بخمس لغات: العربية والانجليزية والفرنسية واليونانية والإسبانية، محافظة على التراث الشامي المتعدد اللغات، تقول بأنها تستخدم الانجليزية للعمل، والفرنسية مع الأصدقاء والحوارات السياسية، والإسبانية عند الاستماع للموسيقى والاسترخاء، والعربية في البيت مع العائلة وكذلك للشتائم، واليونانية اثناء العطلات، بالنسبة لها دائما ما تبدل بين اللغات بكل مرونة، ويمكنها تطعيم ثقافات هذه اللغات جميعها مع بعض.

لكل لغة منظور معين للحياة، فعندما توفي نيلسون مانديلا، كثر الكلام عن (اوبنتو) وهي كلمة بلغة نغوني بونتو يمكن تفسيرها تقريبا لمعنى الانسانية المشتركة أو الأخوة بين البشر، بالطبع تعني أكثر من هذا لمن يفهم هذه اللغة، فعندما نتحدث عدة لغات تتوسع مداركك ولا تحتاج لترجمة قاصرة، تعلم لغة أخرى هي السبيل الوحيد للإحاطة بكل هذه المعاني.

ويشاع أيضا أن التحدث بلغة أخرى لا يوسع المدارك ويعرفك بالثقافات وحسب بل ينمي ملكة ذهنية خاصة حسب كل لغة، فمن المشهور أن الألمانية تهيم الشخص لفهم الموسيقى، ولغة الماندرين الصينية

تشكل العقل لاستيعاب للرياضيات، والفرنسية أو الإيطالية لغات الحب والشعر، والانجليزية لغة عملية تناسب الأعمال، وغيرها مما تشتهر به اللغات الأخرى. ويروى بأن الامبراطور الروماني تشارلز الخامس كان يخاطب الآلهة بالإسبانية، والنساء بالإيطالية، والرجال بالفرنسية، وحصانه بالألمانية، بالطبع ستفهم زميلتي السورية وستقول بأن عدم التقيد بلغة واحدة سيمنحك مفهوما جديدا للغة فالحرية عالمية.

عصفت اللغة بولائي أيام الطفولة، كنت أحاول البحث عن هويتي ولا أجدتها مما شكل صراعا داخليا، وسيفهم ما أتحدث عنه أي شخص كاتالوني أو باسكي أو كردي، عندما لا تطابق اللغة التي تتحدثها في المنزل مع اللغة الرسمية يصبح الذهاب للمدرسة أمرا عسيرا، عانى البربر في شمال افريقيا والسكان الاصليين لأمریکا من هذه المحاباة، يزخر تاريخ الشعوب بأمثلة كثيرة على الصراع اللغوي، كمنع اللغة الفرنسية في لوزيانا اثناء السبعينيات والثمانينات، وقمع اللغة البريتانية في فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، والتضييق على اللغة الويلزية في القرن التاسع عشر، والكبح المستمر للغات السكان الأصليين في استراليا.

العلاقة بين اللغة والثقافة والهوية تجعل التنوع اللغوي في العالم أمرا أساسيا، تقدر اليونسكو بأن نصف لغات العالم والبالغ عددها 6000 لغة قد تنقرض بنهاية القرن، كل لغة وبالذات لغات السكان الأصليين في المناطق المستعمرة تحمل كنوزا لم تكتشف من المعرفة، وعندما يتوقف الناس عن التحدث بلغة ما فإن علوما ثمينة في الطب والزراعة والطبيعة سرعان ما تندثر و تندثر معها طرق مختلفة للنظر للحياة، ويرفع مشروع هانز روزينق للغات المهددة بالانقراض بدعم من قسم الدراسات الشرقية والأفريقية في جامعة لندن شعارا مخيفا وهو: (كل كلمة مفقودة تعني فقدان عالم آخر).

ويجري العمل في اليونسكو على بحث بعنوان "اللغات المهددة بالانقراض كأداة لدراسة وحفظ التنوع الحيوي" ويشير البحث إلى دراسة لقبائل الامويشا في أعالي الأمازون والتي تربط بشكل مباشر بين قلة عدد المتحدثين الأصليين وقلة تنوع المحصول الزراعي المحلي. ونشرت دراسات من جامعة ولاية بنسلفانيا وجامعة أوكسفورد عام 2012 في اعقاب مؤتمر الأكاديمية القومية للعلوم، أكدت على الارتباط بين الانخفاض المتسارع في أصناف النباتات والحيوانات وتوقع الانقراض في لغات العالم، وأكثر المناطق المتضررة من نقصان التنوع الحيوي هي المناطق التي تموت فيها اللغات، فأكثر من 4800 لغة في العالم تتركز في المناطق المزدهرة بالتنوع الحيوي العالي.

دائما ما تنقسم اللغات وتتفرع، ولكن التناقص الحالي السريع للغات أمر يدعو للقلق، ولا يمكننا القاء كل اللوم على الإنجليزية وانتشارها المستمر، بل إن العولمة التي جلبت معها الإنجليزية ترمي بالثقافات المحلية

والتنوع اللغوي عرض الحائط، خلف سيطرة اللغة الانجليزية تنطوي مخاطر عديدة لخصوصيات وطقوس ثقافة الأقليات والتي قد تندثر، واللغة المرتبطة بهذا الخطر هي الانجليزية المبسطة العالمية سريعة الانتشار، فالعولمة واللغة الانجليزية مرتبطتان بعلاقة تكافلية.

لافتات الفنادق ذات الترجمة الظرفية، والتي يتندر بها المتحدثين بالانجليزية عندما يصادفونها في سفرهم مثل "في حال الحريق الرجاء إثارة كل النزلاء" أو "لا تنجبوا الأطفال في بركة السباحة" تحمل دلالات ليست بتلك الطرافة، فاللغة الانجليزية اللهجية لا تستعصي على متحدثيها الأصليين وحسب، بل إنها تتشكل كدخان عشوائي ملوث بالمصطلحات الغربية بلا اسم أو هوية حقيقية. فتاريخ الانجليزية العريق قد أنجب لنا وبلا قصد هذا المنشق النشط العصي على التقويم، والذي يفسد بلاغة اللغة التي انجبته وأي لغة أخرى يلقاها في طريقه، وكما تنشر ايكيا الأثاث نفسه في كل أنحاء العالم، فهذه الانجليزية الهجينة يساندها انتشار التكنولوجيا في كل مكان تزيل التفرد وتزرع التماثل.

نما لدى ابنائي اهتمام بإفريقيا لعدة أيام بعد هذا الموقف. بحثنا في الانترنت عن صور لبنين وبوركينا فاسو والكونغو الجمهورية والديموقراطية ومدغشقر ومالي والسنغال وتونغو والغابون، وهذه بعض من الدول الفرنكفورية العديدة في افريقيا، ورأيت ابنائي وقد تفتحت أمامهم آفاق جديدة لأول مرة وتريهم الفرص الهائلة في التواصل والتعرف على الآخرين، والفضل يعود لهذه اللغة التي احاطبهم بها، فقد اتاحت لهم القاء نظرة من زاوية مختلفة على هذا العالم الفسيح.

هذا التلاحح الذي لا يمكن حسبانه مهدد بطغيان العولمة والصراعات في أنحاء العالم، موت لغة هو عرض واحد للأمراض العديدة التي تفتك بكوكبنا من الناحية البيئية أو الثقافية أو الاقتصادية، فالكلمات المنسية هي أشجار ساقطة، وفقدان لغة هو أرض قاحلة أخرى، ومن المحزن رؤية جذور الماضي العريق وفروع المستقبل اليانعة يتم تقطيعها إربًا إربًا.

تروي حكاية في الانجيل قصة سقوط برج بابل وتفرق الناس لألسنة مختلفة جعل من الصعب التواصل بينهم، ومع ذلك فلا يبدو أن الانجليزية المبسطة سترجع الناس للكلام بلغة واحدة، وحتى تاريخ الحروب الأهلية في الدول ذات اللغة الواحدة تظهر عكس هذا، واليوم حيث يحارب الاختلاف من كل الجهات ويقل عدد الطلاب الدارسين للغات الأجنبية في الدول الناطقة بالانجليزية، فإن كل ما اود ايصاله للعالم عندما اكافح لتعليم ابنائي لغة أخرى هو أن التنوع والتعدد هو أمر ضروري في الحياة.